تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

٢١ دخول النصرانية في لبنان

لهذا البحث علاقة طبيعيّة مع بحثنا السابق عن كنائس لبنان القديمة فلا يسعنا الّا الخوض فيهِ هنا

روى رينان في كتاب بعثة فينيقية عن الموارنة انهم يدّعون كون الوثنيّة لم تشع في وطنهم مطلقاً وهذا افتراء في حقّ اهل لبنان الذين لم يذهبوا الى مثل هذا القول الباطل. وكيف يا ترى يزعم اللبنانيون بذلك وكل انحاء جبلهم تنطق بشيوع عبادة الاصنام في القرون الغابرة وفيهِ من آثار التوثّن ما سبق وصفهُ في مقالاتنا

وما لا مريةَ فيهِ انَّ لبنان كبلاد الشام جمعاء كان يدين بالشرك بل بقي لعزلة موقعهِ يثوي تحت عبء الوثنيـة مدّةً بعد ان ارسلت النصرانيّة اشعّتها على سوريّة اجمالاً وعلى فينيقية خصوصاً وكانت مدنها الساحليّة على طريق دعاة الدين المسيحي فنالوا من انواره حظّاً وافياً قبل سواهم

١ لبنان واول مبشريه

ارتأى بعض الكتبة انَّ المسيح وطئ ارض لبنان واستندوا في تأييد رأيهم على آيتَي متى (١٥ : ٢١) ومرقس (٧ : ٢٤) حيث ورد عن الرب لذكرهِ السجود انهُ ذهب الى تخوم صور وصيداء. غير انَّ هـذا الموضع لا يصرّح بذكر الطريق التي سلكها المسيح وقد زادنا القديس مرقس في الفصل ذاتهِ ايضاحاً اذ قال (٧ : ٣١): « انهُ خرج من تخوم صور ومرَّ في صيداء وجاء فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل ». فان الطريق التي تؤدي تواً من صيداء الى المدن العشر تمرّ في مُنعطف لبنان جنوبي شرقي صيداء فتبلغ النبطيّة او جوارها عابرةً على نهر الليطاني عند الجسر المعروف اليوم بالقعقاعيّة فتنتهي الى جنوبيّ شرقيّ بلاد بشارة. وهـذه الطريق تسير عليها السابلة الى يومنا والطبيعة نفسها ترشد اليها. فلهذا الرأي كما ترى سندٌ ولا حرج على من يقول بهِ وللكتبة المحدثين قول آخر او تقليد محليّ يزعمون بموجبهِ انَّ السيد المسيح لم يدخل

فقط صيداء بل بلغ ايضاً حتى ثغر بيروت. والتقليد المذكور اثبتهُ في القرن الخامس عشر احد الزوّار الالمانيين يدعى برّيتنباخ (راجع المشرق ١: ١٩١). ثمَّ اوردهُ كوارزميوس في كتاب وصف الاراضي المقدسة (١ وذكرهُ احد ادباء الالمان في مقالة طبعها سنة ١٦٩٢ عن بيروت وآثارها. ولعلَّ هذين الاخيرين نقلا ما قالهُ برّيتنباخ. وهذا التقليد على ما ظنّ ليس بثبت لا نرى رجحاً لتوفيقهِ مع ما رواهُ الانجيليون

لكنَّ الله منح بيروت نعمة أخرى يحقّ لاهلها ان يفتخروا بها نزيدُ احتلال القديس بطرس هامة الرسل في ربعها. وهو امرٌ يقبلهُ العقل ويؤيدهُ النقل. امَّا العقل فلأن بطرس الصفا انتقل غير مرَّة من اورشليم الى انطاكية فترتب عليهِ ان يجتاز في بيروت وهي اذ ذاك من اعظم مدن فينيقية شأناً. امَّا النقل فلنا منهُ شهادة قديمة تُعزى الى تلميذ بطرس الرسول وخلفهِ في كرسيهِ البابوي القديس اقليمس وردت في كتاب الابحاث والميامر (٢. وهو تأليف قد اختلف العلماء في كاتبهِ الَّا انهم يتفقون على كونهِ سبق اوائل القرن الثالث

وفي الكتاب الموما اليهِ فوائد أُخر عديدة عن تاريخ النصرانيَّة في فينيقية والانحاء المجاورة لمدنها الساحليَّة الَّا اننا لا ننقل عنهُ غير ما نراهُ راهناً مقرَّرًا توافقهُ الشواهد القديمة (٣. ومن ذلك ما جاء عن جبيل (٤ انَّ الرسول الهامة اقام لها اسقفاً حنا مرقس احد تلامذتهِ وكان المذكور ولد في اورشليم وهو نسيب للقديس برنابا (٥ وفي بيتهِ نزل بطرس الرسول لمَّا انقذهُ الرب من ايدي هيرودس (٦. فسقَّفهُ على جُبيل كما تشهد على ذلك النكسارات الشرقيَّة اليونانيَّة والسريانيَّة والمارونية فضلاً عن الكلندار الروماني الذي ذكر عيدهُ في ٢٧ ايلول. والمؤرخون الاقدمون يوافقون في ذلك الآثار الطقسيَّة

فمن ثمَّ تكون اسقفيَّة مرقس المذكور الأثر الاول لدخول النصرانية في لبنان لأن

١) راجع كتابهُ Elucidatio Terræ Sanctæ

٢) طالع مجموع آباء اليونان لمين الجزء الاول والثاني

٣) وقد عدلنا عن ايراد هذه الامور لبس فقط لانَّ مؤلف كتاب الابحاث مشتبهٌ فيهِ بل لاسباب اخرى يؤدي بنا ذكرها الى الاطالة

٤) وقد ذكر عن بيروت انَّ القديس بطرس سام لها اسقفاً يدعى كوارنس

٥) راجع رسالة القديس بولس الى اهل كولوسي (٤: ١٠)

٦) اعمال الرسل (١٢: ٢١)

جُبيل كما اشرنا الى ذلك في المشرق (٣ : ٢٩١) كانت مرتبطة بلبنان ارتباطاً غير منفصم بل كانت معدودة منهُ داخلةً فيهِ كما ترى في عهدنا. وبما انها كانت محاطة بعدَّة هياكل مقدَّسة تشرف عليها من الآكام والرُّبى المجاورة لاسيما هيكلي افقا والمشنقة (المشرق ٢ : ٥٩٩ و ١١٢١) فكان الفينيقيون يعدُّونها مثل كعبة دينهم يحجُّون اليها من اقطار بعيدة فيتيمَّنون فيها مناسكهم الدينيَّة التي باشروها في هياكل لبنان ويكرمون بزيارتها ادونيس والزهرة

هذا ولا نعلم ما نالهُ اول اساقفة جبيل من النجاح في تتمة رسالتهِ المقدَّسة. ولا غرو أنهُ لقي في دعوتهِ عوائق شتى حالت دون رغائبهِ الخلاصيَّة. ومما لا يُنكر انَّ في ذلك الوقت عينهِ اذ بزغت شموس النصرانيَّة في اقطارنا الشَّرقية صار للدين الوثني نهضة جديدة في لبنان فانَّ تاريخ بنا. بعض هياكل الاصنام فيهِ يرتقي الى ذلك العهد كهيكل قفرا (المشرق ٣ : ٦٠) وغيرهِ. ولم تزل الوثنيَّة في عزّ وترقٍّ في مطاوي القرن الثاني للمسيح وفي اوائل القرن الثالث

واشتدَّ اوز الدين الوثني في لبنان بملك الامبراطور الروماني ادريان الذي زار لبنان في بدء القرن الثاني وسكن مدَّة في جبيل. وكان هذا القيصر من عبدة الزهرة يظهر لها التجلة والاكرام وقد بنى لها في رومة معبداً كبيرًا وادخل عبادتها في بيت لحم لمماكسة النصرانيَّة. ومن آثارهِ الباقية في لبنان الكتابات العديدة التي وصفها اصحاب العاديات وذكرناها في مقالاتنا المرَّة بعد المرَّة. ولا نشكُّ انهُ حجَّ الى معابد الزهرة وادونيس خصوصاً في افقا ودير القلعة (١ كما انهُ شيَّد بعض الهياكل ورمَّم غيرها لاسيَّما في جُبيل وكانت تُعدُّ في ايَّامهِ كاحدى حواضر المدن وامَّهاتها

وجرى خلفاء ادريان على سنتهِ فعزَّزوا في لبنان الشرك والتوثُّن كيف لا وبعضهم كانوا وُلدوا في لبنان او المدن الملاصقة له نخصُّ منهم بالذكر اسكندر ساويرس الذي كان مولدهُ في هيكل الزهرة في عرقا. ولذلك ترى كثيرًا من الآثار الدينيَّة الفخيمة التي تزيَّن لبنان حتى يومنا هذا قد شُيدت في ذلك العهد منها هيكلا بعلبك وحصن سليمان في جبل النصيريَّة. تشهد على اصلها كتب المؤرخين. وفي لبنان مباني أُخرى

(١) ولعلَّ النصب الذي وصفناهُ في المشرق (٢ : ١٢٣) قد اقيم حفاوةً بهِ لمَّا زار هذا المعبد

غيرها يُجهل تاريخها والارجح انها بُنيت في الوقت عينهِ لما فيها من الشبه مع ابنية ذلك العصر كحصن صافيري في الضنية وناوس قرب كسبا و بزيزا في الكورة وغير ذلك مما سنورد ذكرهُ في مقالاتنا

وهذه النيرة التي نراها في عبدة الاوثان في اوائل النصرانيَّة تدلّ دلالةً واضحة على انَّ المشركين في لبنان أبوا الّا ان يدافعوا عن آلهتهم لئلّا تحطّهم ديانةُ المسيح عن مقامهم الرفيع الذي بلغوا اليهِ سابقًا

ولكن دعنا نستوفي اخبار النصرانيَّة في لبنان في اواخر القرن الاول. افادتنا التآليف المنسوبة الى القديس اقليمس انَّ القديس بطرس احتلّ طرابلس واقام عليها اسقفًا يدعى مارون. وهذا الامر ذو شأن لا نرى في صحَّتهِ التاريخيَّة مشكلًا وان كان مدوّن هذا الخبر زاد فيهِ من الاوصاف الوهميَّة ما لا يقبلهُ العلم الصادق. ويسرُّنا ان نرى في ذلك العهد اسقفًا جليلًا يتبيَّن قوائم الموارنة باسمهِ وقد اشتهر في مدينة تطلّ عليها تلك الجبال التي صارت بعدئذٍ مهد طائفتهم العزيزة

ومن الآثار النصرانيَّة التي ترتقي الى القرن الاول استشهاد القديس تادّاوس الذي روى عنهُ الرواة الاقدمون انهُ رُجم في بيروت لاجل الايمان. وفي تعريف الشهيد المذكور رأيان مختلفان فزعم البعض انَّهُ احد تلامذة الرب السبعين وذهب غيرهم الى انهُ هو الرسول يهوذا او تدّاوس اخو يعقوب البار. ويصعب علينا جزم الامر لقلة الادلَّة. وانما جاء في تاريخ البطريرك ساويرس (راجع المشرق ٣: ١٠٠٤) انَّ بيروت كانت تحتوي كنيسةً باسم القديس يهوذا اخي يعقوب البار في القرن السادس (١. وهذا لعمري اثرٌ حسن يشهد بتقدم التقليد عن القديس يهوذا المذكور

٢ تراع النصرانية والوثنية

يحصل من فصلنا السابق انَّ لبنان لم يُحرم من نعمة النصرانيَّة منذ القرن الاول من تاريخها. ولا جرم انَّ الدين المسيحي نما في القرنين التاليين. الّا انَّ الآثار القديمة لا تكاد تفيدنا عن شؤونهِ شيئًا فنظنّ انَّ نموَّهُ كان بطيئًا لما تصدَّى لهُ من العوائق من قبل المشركين الذين كانوا اتَّخذوا هذا الجبل كمقرّ لدينهم فبنوا فيهِ الهياكل العديدة

(١ طالع Revue de l'Orient chrétien, Opuscules maronites 1899, p. 565

وشيّدوا الآثار الدينية فاقوا في اخلاق الجبليين وطباعهم النظّة ما قوّى روح التعصّب بينهم . وعلاوةً على ذلك نرى الشيع الوثنية ليس في الشام فقط بل في كل انحاء المعمور قد التجأت الى مشارف الجبال بعد ان دحرتها النصرانية في المدن العامرة وسفوح البلاد لنا شاهد على ذلك في جبل برجيلوس المعروف في يومنا بجبل النصيريّة فانّ سكانهُ اصرُّوا على وثنيّتهم الى القرن الخامس مع انّ هذا الجبل دون لبنان في علوّهِ واسهل منهُ مرتقىً

وهذه الملاحظات العمومية عمَّا لقيتهُ النصرانية في طريقها من العثرات يؤيدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان الّا نادرًا . وكذلك الآثار الكتابيّة فانَّ الوثنيّة منها كثيرة امَّا النصرانيّة فهي قليلة جدًّا . فكل ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدّسة من المقاومات والمدافعات قبل ان ترسخ مبادئها القويمة في ارض لبنان حتى صارت في توالي الاعصار عصمةً للدين لاسيَّما بعد ان توطنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بحماستها الدينية

وفي عهد الملك نومريان القيصر الروماني (٢٨٣—٢٨٤) تشرَّف لبنان بوفاة احد ابنائهِ شهيدًا وهو الطبيب طليليوس (لعلهُ هكذا اي مظلّل ومحيي) وكان استشهادهُ في قيليقيا ومما ورد في ترجمة حياتهِ انهُ قال للحاكم لمَّا طلب منهُ نسبهُ : « اني أُدعى طليليوس ومولدي في لبنان واسم ابي بريكوكيوس (لعلهُ دهمخا اي مبارك) وهو نصراني واحد ضبّاط الجيوش . وتدعى امي دروميليا واخي يوحنا وهو شماس (١) » . فحكم الوالي على طليليوس بقطع الرأس بعد ان مثّل بهِ واذاقهُ مرَّ النكال الّا انَّ الله عزَّ وجلَّ اشهر قداسة عبدهِ بما اجترحهُ من المعجزات الباهرة على قبرهِ حتى ذاع اسمهُ في اقاصي الشرق

ومن النصّ السابق يصحّ لنا ان نستنتج انَّ النصرانيَّة كانت اخذت في الامتداد في لبنان منذ اوائل القرن الثالث لاننا نرى العيال فضلًا عن الافراد يدينون بدين المسيح . وكذلك وجود شمّاس في أُسرة لبنانيَّة يدلُّنا على وجود الرُّتب الكنسيَّة وكلّ ذلك لا يقوم الّا بكنائس منتظمة . ثمَّ انَّ اسماء المذكورين الّا واحدًا منها آراميَّة الاصل فذلك بيّنةٌ على انَّ لغة اللبنانيين لم تزل بعد آراميَّة اي سريانية

(١) راجع اعمال القديسين البولنديين في ٢٠ ايّار .

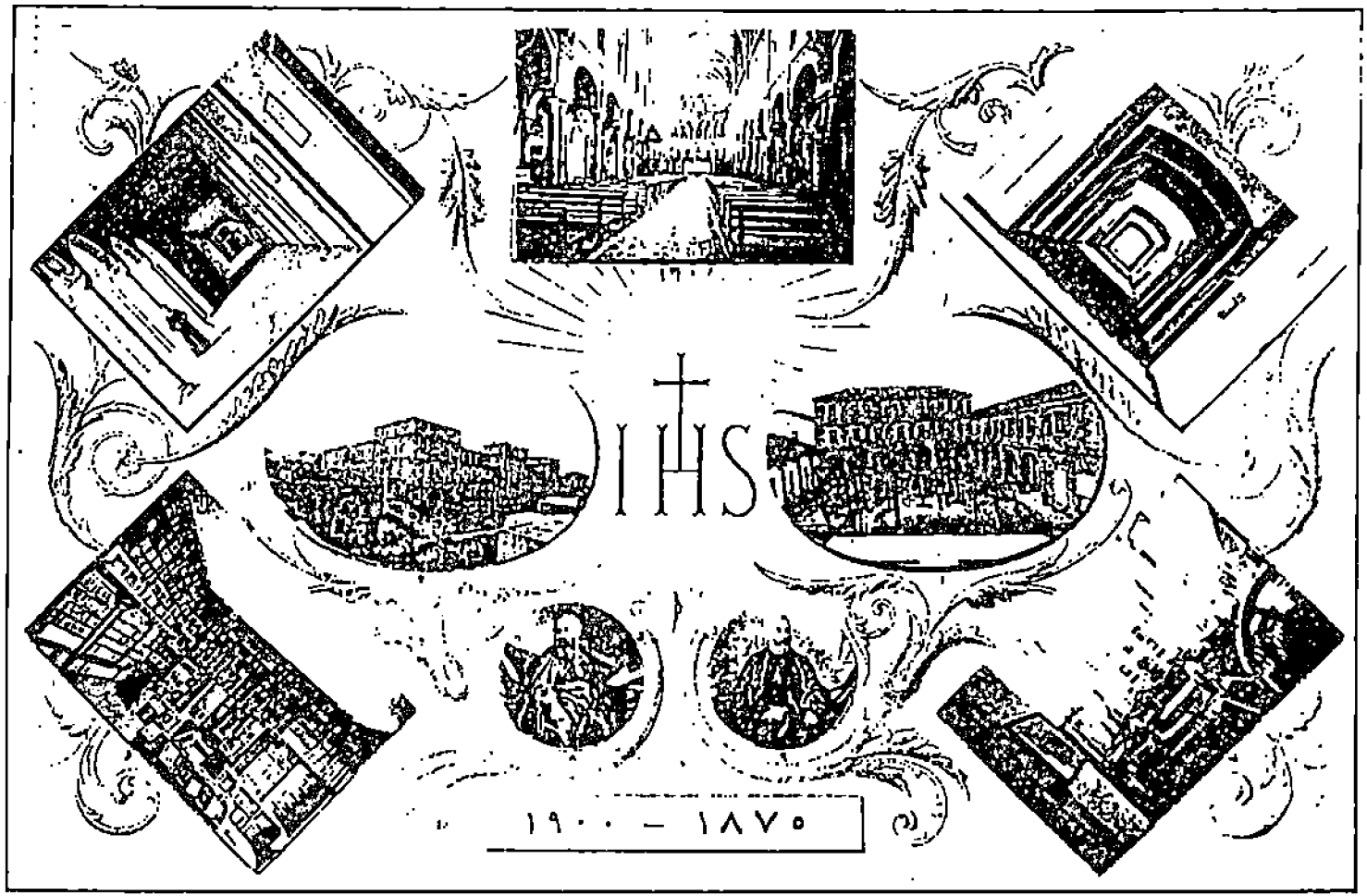

١ معهدنا العالي ٢ مدرستنا الكبيرة ٣ كنيسة كليتنا ٤ المبنى الاصلي ٥ المبنى الاوسط ٦ المكتبة الكبرى ٧ القاعة الكترابكية ٨ الاب مؤسس المدرسة ٩ الاب باليو مهندسها

ولا بُدَّ هنا من ملاحظةٍ على موقع لبنان الذي ذكرهُ الشهيد طيليوس فنقول انهُ لا يدلّ ضرورةً على لبنانِنا الحالي وانَّ اسمهُ كان في ذلك العهد يشمل الجبال الواقعة في شمالي النهر الكبير فإنَّا لم نجد في معرض قول الكتبة الاقدمين ما يزيل الشبهة يصعب علينا ان نستدلّ على جهتهِ المنوَّهِ

وفي سنة ٢٩١ للمسيح زان الله باكليل الاستشهاد هامة فتاةٍ من عذارى جُبيل تُدعى اكوبلينا فقصفها المغتصبون كغصن رطيب وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة. وقد اخبر البولنديُّون (في اعمال القديسين اليوم ١٣ من حزيران) انَّ نصارى المدينة جمعوا ذخائرها المقدَّسة فدفنوها بمزيد الاكرام ثمَّ تعدَّدت العجائب على قبرها. الَّا ان عبادتها اليوم قد اندثرت فلم يبقَ لها ذكرٌ بين مواطنيها وهو امر غريب لولا ان التاريخ ينبئنا بنقل جسمها الطاهر الى القسطنطينيَّة في القرون التابعة فاصابت هناك من تعبُّد الاهلين ما فقدتهُ في وطنها

وقد ارتأى الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخهِ المخطوط عن لبنان (ص ٢١٣١) ان ذكر الشهيدة اكوبلينا قد امتزج في كرّ الاعصار باسم قديسة أُخرى تعرف بمرّتينا التي يكرّمها اهل جُبيل اكراماً عظيماً وفي جوار بلدتهم معبد شيَّدوه على اسمها يحجون اليهِ من كلّ أوب والزوَّار يأخذون من ترابهِ شيئاً فيتبركون بهِ. واكثر ما يأتيهِ المؤمنون في ايَّام قطف دود القزّ

وتشرَّفت ايضاً طرابلس في ذلك العصر بشهدائها منهم الشهيدان مندالينس (راجع البولنديين في ١٢ حزيران) ولوسيان او لوسيوس (راجع السنكسار الروماني في ٢٤ كانون الاول). ولا نعرف من امر لوسيوس المذكور الَّا اسمهُ كما صرَّح بذلك العلماء البولنديون. وعندنا انَّ لوسيوس المذكور هو القديس الذي يكرمهُ اهل لبنان منذ زمن قديم باسم القديس نوهرا او نهرا. وليس نوهرا (ܢܗܪܐ اي نُور) سوى ترجمة اسمهِ اللاتيني في السريانية وفي السنكسار الماروني في تاريخ ٢٢ تموز ما معناه: « في هذا اليوم نحتفل بجهاد الشهيد لوجيوس (ܠܘܓܝܘܣ) وكان اصلهُ من منبور (كذا) من بلاد العجم فطاف البلاد وبشَّر بالايمان في المسيح حتى بلغ مدينة البترون في بلاد فينيقية فمات فيها شهيداً. وهو شفيع المصابين باوجاع العيون ولذلك دعاهُ السريان بلغتهم نوهرا اي نوراً وهذا معنى اسمه لوجيوس »

وليس في هذه النبذة ما يناقض قول الاقدمين بان لوسيوس استشهد في طرابلس وطرابلس كما لا يخفى تُعدّ من اعمال فينيقية ولعلّ قرب موقع البترون وطرابلس جعل البعض يذكرون وفاتهُ في احداهما دون الأخرى ثم لا نرى التقليد المحلي على رأي ثابت في ذلك لانّ اهل سمار جبيل يدّعون بانّ استشهاد القديس نوهرا كان في قريتهم ولهم بئر يزعمون انهُ ألقي فيهِ فغرق. ويؤيدون زعمهم بكتابة سريانية في جدار كنيستهم. ولكن غاية ما يستفاد من هذه الكتابة انّ احد افاضل الكهنة مدفون في هذا المكان ولم يبقَ لاسم هذا الكاهن اثر. وسنعود ان شاء الله الى وصف هذه الكتابة عند ذكرنا سمار جبيل (ستأتي البقيّة)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

سربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني

٨

وكان في جملة الكبراء اللبنانيين النازلين وقتئذٍ في قصر بشرّاي زين مقدّم البترون وهو من ابطال الجنود أظهر كثيرًا من مآثر البسالة رغمًا عن حداثة سنّهِ. وكان عظيم القامة مفتول العضل قوي الساعد نادرةً في الشجاعة والاقدام وقد ضمّ الى هذه الاوصاف استقامة الضمير وكرم الطباع فكانت الرعيّة في امارتهِ الصغيرة تحبهُ وتحترمهُ وكان هو يعاملها باللطف والعدل

وقد رغب ان يصون قومهُ من غارات التركمان المقيمين في قلعة المسيلحة بوادي نهر الجوز فرمّم من مالهِ سور البترون وقلعتها التي من بناء الصليبيين. ولاجل هذه الغاية عينها وتمكين سبل الاتصال مع اعالي لبنان وحماية وادي دوما وتنورين المشهورين بخصبهما اتزل جنودهُ في مركز قلعة الحصن فوق بشمة ومار يعقوب وهكذا ايضًا فعل بقلعة سمار جبيل

فهذه الاعمال كلها مع ما تحلّى بهِ المقدّم زين من الاوصاف التي مرّ بيانها جعلتهُ اخلص الاعوان واوفاهم لمقدّم مدينة بشرّاي فحبًا بمكافأة اخلاصهِ ورغبةً في توثيق